مفهوم المنهج في الفلسفة وتطوره التاريخي (المنهج في الفكر الإسلامي من الإبداع إلى الأزمة)

The concept of the approach in philosophy and its historical development (the approach in Islamic thought from creativity to crisis)

بكيري عبد الله

bakiriabdallah3@gmail.com

جامعة الجزائر 2،

بوزريعة (الجزائر)

ملخص:

يعالج المقال مسألة المنهج الذي يكتسي في الفلسفة مكانة كبيرة، فتتبع تاريخها يوحي بأن الإشكالية الكبرى التي حركت معظم مباحثها كانت من منطلق منهجي بحت، إن المناهج في الفلسفة عرفت تطورا وتغيرا عبر تاريخها، حيث مرت بمراحل متفاوتة، وصولا إلى الفكر المعاصر الذي عرف ثورة في المناهج العلمية والفلسفية، حتى أصبحت للمناهج فلسفة تدرسها.

إن استقراء تاريخنا الحضاري يبين الإسهامات الكبيرة للحضارة الإسلامية في هذا الميدان، قبل أن تعرف ردة فكرية، تحول معها المسلمون من منتجين للمنهج كطريقة نحو أصالة المعرفة إلى باحثين عن منهج يخرجهم من التخلف الذي صاروا يعيشونه في جميع مناحي الحياة.. إنه انتقال من الإبداع إلى التأزيم.

كلمات مفتاحية: المنهج، الفلسفة، الإسلام، الغرب، الأزمة.

Abstract:

The article deals with the issue of the curriculum that has a great place in philosophy, so tracing its history suggests that the major problem that moved most of its research was from a purely methodological standpoint, that the curricula in philosophy have known evolution and change throughout its history, as it went through varying stages, up to the contemporary thought that defined a revolution in Scientific and philosophical approaches.

Keywords: Approach, philosophy, Islam, the West, crisis.

المؤلف المرسل: بكيري عبد الله ، **الإيميل:** bakiriabdallah3@gmail.com

.

مقدمة:

يتطلب البحث في أي مجال من المجالات، منهجا يتبعه الباحث أو الدارس، ولهذا أوْلَى الفلاسفة أهمية كبرى لتحديد المنهج المتبع، ولما كانت العلوم تختلف كانت المناهج بدورها تختلف، ولهذا كان لكل فرع من هذه العلوم ما يناسبه منها، ولكل مفكر منهج أو مناهج يعتمد عليها في بناء فكره، ولعل هذه المسألة في الفلسفة تكتسي مكانة أكثر أهمية كون تتبع تاريخها يوحي بأن الإشكالية الكبرى التي حركت معظم مباحثها كانت من منطلق منهجي بحت، ولا أدل على ذلك من جدال الحس والعقل كمنطلق منهجي اشتغلت عليه الفلسفة اليونانية منذ إرهاصاتها الأولى.

إن المناهج في الفلسفة عرفت تطورا وتغيرا عبر تاريخها، حيث مرت بمراحل متفاوتة، وصولا إلى الفكر المعاصر الذي عرف ثورة في المناهج العلمية والفلسفية، حتى أصبحت للمناهج فلسفة تدرسها، والملاحظ لهذا التاريخ لاشك يدرك الإسهام الفكري الكبير للحضارة الإسلامية في مرحلة ما في تطوير المناهج الفكرية المختلفة، ويدرك أيضا تخلف هذه الحضارة في عصرنا عن مواكبة الطفرة المنهجية في الحضارة الغربية، لهذا نتساءل: كيف تحول المنهج في الفكر الإسلامي من مظهر إبداع إلى معبر عن أزمة؟ وما هو التطور التاريخي في المقابل في الفكر الغربي؟ وقبل ذلك: هل يمكن الحديث عن منهج للفلسفة أم عن فلسفة للمناهج؟

للإجابة عن هذه الأسئلة حاولنا تتبع مفهوم المنهج في الفلسفة وتطوره التاريخي، مركزين على نموذجي الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وفق مقاربة تحليلية نقدية.

2. مفهوم المنهج:

المنهج : لغةً ، يعني الطريق الواضح وورد في القرآن الكريم في قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) "المائدة الآية 48"، وفي لغتنا العربيّة نجد أنّ كلمة المنهج مأخوذة من الفعل نهج ينهج نهجاً ، ورد في المعجم الوجيز: (مادّة نهج) " نهج الطريقُ نهجاً : وضَح واستبان ، ونهج الطريقَ : بيّنه ، وسلكه ، ويقال : نهج نَهْج فلان : سلك مسلكه ، وانتهج الطريقَ : استبانه وسلكه ، واستنهج سبيل فلان : سلك مسلكه ، والمِنْهاج : الطريق الواضح والخطّة المرسومة ، ومنه : منهاج الدراسة ، ومنهاج التعليم ونحوهما ، (ج) مناهج ،والمنهج : المنهاج (ج)مناهج."([1]) .

و المنهج في الاصطلاح هو الوسيلة المحددة التي توصل إلى غاية معينة، و يقابله في الفرنسية " Méthode "، وفي الإنجليزية " Method "، أما المنهج العلمي فهو خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها.([2])

و يعرف المنهج أيضا على أنه مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم، بلوغ الحقائق المتوخاة مع إمكانية بيانها و التأكد من صحتها.([3]) ويعرفه رونيه ديكارت: " أعني بالمنهج جملة من القواعد السهلة التطبيق ، إذا ما راعاها الشخص بدقة تجعله لا يتخذ شيئًا خاطئًا على أنه صحيح ، ولا يُضيّع أي جهد عقلي ، بل تجعله ينمي معرفته خطوة ،خطوة حتى يصل إلى فهم صحيح لكل الأشياء التي في قدرته."([4])

3. المنهج في الفلسفة: (منهج الفلسفة أو فلسفة المناهج)

يرتبط البحث مهما كان نوعه بمنهج يتبعه، وهذا المنهج مهما كان نوعه ضروري للوصول إلى نتائج، يقول الدكتور الزواوي بغورة: "تعد مسألة البحث في المناهج من المسائل الاساسية في العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء، و ذلك لأن نتائج كل علم ترتبط بالمنهجية المتبعة، ويثبت تاريخ العلم الحديث أنه ليس هنالك من علم دون منهج يشكل حلقته الأساسية التي يبنى عليها."([5])

إن أهمية المنهج تكمن و تتجلى من خلال علاقته بالموضوع وبالنتائج، وهذه الأهمية جعلت من المنهج في أي فكر هو الأساس و هو المشكلة، يقول يوسف زيدان " المشكلة هي المنهج ، ذلك ما أعتقده و أقول به، ليس فقط فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية، و إنما في العلوم كلها، بل المنهج هو المشكلة

المهمة في شتى ضروب واقعنا المعاصر: فكريا و اقتصاديا وسياسيا و اجتماعيا .. وعلميا أيضا."([6])

هذه الأهمية للمنهج تتجلى بشكل مضاعف في الفلسفة، فهل للفلسفة منهج واحد ؟ أم أن لها مناهج متعددة و مختلفة اختلاف المذاهب الفلسفية ؟ أم أن الفلسفة في حد ذاتها منهج؟

لقد كان الفلاسفة عبر التاريخ يتبعون مناهجا أو طرائقا في البحث و النظر، و اهتم البعض منهم بمسألة المنهج الفلسفي اهتماما تجلى فيما خصصوه لها من مؤلفات، و لم يكتفوا إذا بالحدس الشخصي، بل سعوا إلى الإستدلال عليها أو الإقناع بها، فسخر السفسطائيون فنون الخطابة لإشهار آرائهم، واستغل أفلاطون ضروب الحوار و الجدل، وحاول ديكارت أن يستخلص منهجا كليا يصبح مفتاحا للإكتشاف في الفلسفة مثلما في العلم، و اعتبر لوروي أن الفلسفة تكاد أن لا تكون سوى منهجا، و أن الفكر يستطيع أن ينفذ مع مر الزمان إلى كل ميدان و لو كان مما يزعم أنه خاص بالعلوم الموضوعية.([7])

إن ما يميز البحث الفلسفي هو اتساعه و لذلك فإن المشكلة الرئيسية في الفلسفة ظلت مشكلة المنهج، " فليس في الفلسفة طريق واحد معبد، ولا يمكن أن نمد الفكر الفلسفي بأدوات كلية أي منهاج شامل ، فطريقته تبلى مع كل موضوع يتصدى لمعالجته، فلا يوجد منهاج فلسفي واحد يستطيع أن يجعل أي إنسان قادر على معالجة موضوعات بكيفية فلسفية، أو أن يتحول التأمل العادي إلى تأمل فلسفي، و ربما كان من المناهج في الفلسفة بقدر ما تدرسه من مواد"([8])

إذا فالفلسفة على عكس العلم ليست قائمة على منهج واحد، فإذا كان العالم الطبيعي ملزما في معالجته للظواهر الطبيعية باتباع المنهج التجريبي الإستقرائي القائم على الملاحظة الحسية، فإن الفيلسوف ليس ملزما بمنهج واحد، بل يحق له استخدام واختيار المنهج الي يراه مناسبا لطبيعة موضوعه، كما أن باستطاعته استخدام مناهج متعددة تتلاءم مع طبيعة المشكلة الفلسفية التي يبحثها، و لهذا نجد الموضوع الواحد يعالج بمناهج مختلفة، حيث " يعتبر المنهج هو الطريق الذي إذا حدد من قبل الباحث لا بد و أن تكون من ورائه فلسفة، و تتضح فلسفة المنهج بالإجابة عن السؤال لماذا يختلف البحاث أو يتفقون في التعرف على موضوع واحد ؟ يختلف البحاث و يتفقون حسب المواضيع، و الفلسفات التي من ورائها، و الإطار المرجعي لكل منهم، و السبل التي يتبعونها في تحقيق الأهداف، و لها تستمد فلسفة المنهج من فلسفة الموضوع، فيصبغ المنهج بفلسفة الموضوع، كما تصبغ الأشياء بالألوان مما يجعل وحدة بينهما لدرجة يصعب علينا الفصل بينهما."([9])

إذا فالحديث عن منهج للفلسفة أو مناهج متعددة مرتبطة بالموضوعات الفلسفية، يقودنا للحديث عن فلسفة المناهج، التي تبحث في المنهج في علاقته بالموضوع، و عودة للمناهج الفلسفية فإن الكثير من المفكرين يميزون بين نوعين منها، وهذا من ناحية حضور المنهج لدى الفيلسوف، و ليس من ناحية طبيعته، و هذان النوعان يتشكلان لدى الفيلسوف كالآتي:

1.3. المناهج الضمنية: و يقصد بها المناهج التي يستخدمها الفيلسوف دون تصريح منه، بل تفهم من السياق العام لمذهبه، و هي " مناهج مستخدمة عمليا عند الفلاسفة، و نستخلصها من كتاباتهم بعد أن تفلسفوا، أي أننا نستخرج طرائق المعرفة عند الفيلسوف بعد أن تتم هذه المعرفة، فهي مناهج لم يخصها صاحبها بحديث عنها أو بخطاب في المنهج، و نكون في حاجة إذا إلى أن نحلل نتاج الفيلسوف لنعف هذه المناهج، سواء كان سكوته عنها صادر عن قصد أو لا، و قد تحدث ياسبرز مثلا عما أنجزه كانط بواسطة مناهج، بما لم يكن واعيا بها تماما."([10])

2.3. المناهج الصريحة: و هي المناهج التي يتبناها الفيلسوف سواء تأسيسا أو عملا بها في إنتاجه الفكري، وهي " مناهج قام أصحابها بتقنينها و تبريرها، و هي إذن حسب الظاهر على الأقل وليدة بحث في المعرفة قبل المعرفة، و قد تكون عند الفيلسوف موضوع خطاب مفصل مثلما صنع ديكارت، أو إشارات قصيرة كما فعل هرقليطس."([11])

و يلخص الدكتور محمود زيدان موضوع المناهج الفلسفية بقوله: " ليس للفلسفة منهج واحد، و إنما عدة مناهج ميزن بين نوعين منها، نوع اختلط بالمذاهب الفلسفية، بحيث يصبح

المنهج جزءا من فلسفة الفيلسوف و لا يمكن عزله عنها، مثل أوغسطين و أنسلم و كانط و هيجل و برغسون و سارتر وغيرهم، و هنالك نوع آخر من المناهج أعلن بعض الفلاسفة عنها في صراحة و وضوح، و لم يعلن عنها البعض الآخر لكن يمكن العثور عليها في ثنايا كتبهم، و يمكن في كلتا الحالتين أن تعزلها عن مذاهبهم."([12])

4. التطور التاريخي للمنهج: (المنهج من الإبداع إلى الأزمة):

في حديثنا السابق عرفنا المنهج الفلسفي بأنه الطريق الذي ينظم المعرفة و يوجهها مهما كانت نوعية هذه المعرفة، و على هذا الأساس يصبح المنهج أصيلا أصالة التفكير الإنساني و البحث الفلسفي، وهذا ما يجعل المنهج باختلاف نوعه و طبيعته حاضرا لدى كل المجتمعات الإنسانية، رغم أن النظرة السائدة حاليا تربطه فقط بالثقافة الأوربية الغربية، و في هذا الإطار يقول حسن حنفي: " ليس المنهج حكرا على شعب بعينه أو وقفا على ثقافة بعينها أو قصرا على حضارة خاصة بل هو عام عند كل الشعوب، ومعروف في كل الثقافات، و موجود في كل الحضارات، و نظرا لسيادة الثقافة الغربية في العصور الأوروبية الحديثة و تصدرها ثقافات العالم حتى أصبحت مركزا، و ثقافات العالم محيطها، ارتبط المنهج بالفلسفة الغربية، و توارت المناهج في الفلسفات الأخرى شرقية أو إسلامية."([13])

إذا فالمنهج ليس أداة خاصة و ثابتة بل هو وسيلة تتماهى وتتساير مع السياق التاريخي و الثقافي والإجتماعي، و هذا ما يجعل المنهج نسبيا ومرنا قابلا للتغير و التطور يقول الزواوي بغورة: "فإن المسائل الإيديولوجية أو الثقافية تتحدد في كون المنهج يرتبط بحقبة تاريخية، أي بمعطيات علمية ومعرفية محددة، وبمشاكل نظرية ومنهجية خاصة مرتبطة أساسا بالذات العارفة وبمرحلة تاريخية، وبأنه موجه إلى حل مشاكل تلك المرحلة ذات العلاقة الاجتماعية والعلمية على السواء.

وعلى هذا الأساس تظهر نسبية المنهج وضرورة تغيره من مرحلة إلى مرحلة، وذلك لأن كل منهج محكوم بالتطورات العلمية التي تشكل خلفيته المعرفية والنظرية، والمستوى الذي وصلت إليه المعرفة العلمية، من حيث امتلاكها لأدوات دراسة الموضوعات.([14])، وفي هذا السياق يرى "باشلار" أن كل منهج هو منهج ظرفي و لن يصف البنية النهائية للفكر العلمي، لماذا؟ لأنه يرى أن الفكر العلمي يعاصر بكل دقة الطريقة المعلن عنها.([15])

إذا فالمنهج طريقة تاريخية مرنة و متغيرة، لذلك سنحاول تتبع هذا التطور التاريخي في استعمال المناهج منذ العصور القديمة سواء في الشرق أو الغرب:

1.4. المنهج في الغرب:

إن الحديث عن المنهج في الغرب يقودنا بالضرورة للحديث عن الفكر اليوناني و نشأة الفكر الفلسفي و التفكير البرهاني، لقد اتجه المنهج اليوناني في بداياته نحو الطبيعة مع مختلف المدارس الطبيعية التي حاولت البحث عن نشأة الكون و أصله، " ولهذا كان أول سؤال طرحه الإنسان لفهم العلاقة الفكرية بينه و بين الكون هو السؤال التالي:

ما أصل هذا العالم ؟ بمعنى ما هي المادة الأولية التي نشأ منها هذا العالم ؟ و كيف تفسر التغيرات التي تحدث في الطبيعة ابتداء من هذه المادة الأولى ؟

كان طرح الإنسان لهذا السؤال على هذا النحو بمثابة التجربة الفلسفية الأولى... وهي تجربة نستطيع أن نطلق عليها اسم الفلسفة الطبيعية باعتبار أنها تتناول الطبيعة: الكون أو العالم و أصلها، و قد قدم هذه التجربة رجال المدرسة التي عفت في التاريخ باسم المدرسة الأيونية، و على رأسها طاليس."([16])

وقد عرف المنهج بعد المدارس الطبيعية نقلة نوعية مع كل من سقراط، أفلاطون و أرسطو، حيث نقل سقراط المنهج من البحث الطبيعي إلى البحث الإنساني معتمدا على منهج جديد هو الحوار أو ما عرف تاريخيا باسم " التوليد السقراطي"، هذا المنهج القائم على العقل في محاولة لتجاوز المنهج الحسي الذي تبناه السفسطائيون وأقاموا من خلاله فكرهم القائم على التشكيك في المعرفة، تقول الدكتورة أميرة حلمي مطر: " لما كانت عناية سقراط قد انصرفت إلى البحث في موضوعين رئيسيين هما النفس الإنسانية و التصورات

الأخلاقية فقد كان من الطبيعي أن يلجأ إلى استعمال المناهج العقلية و التأملات المناسبة لهذه الدراسة."([17])

و استمر المنهج الحواري العقلي مع أفلاطون الذي استغل ضروب الحوار والجدل لبلوغ المعرفة الحقة، " إن المنهج المؤدي إلى المعرفة هو ما يسميه أفلاطون بالديالكتيك، و قد عرف أفلاطون الديالكتيك في محاورة الجمهورية بأنه المنهج الذي به يرتفع من المحسوس إلى المعقول، دون أن يستخدم شيئا محسوسا، و إنما بالإنتقال من فكرة إلى فكرة بواسطة فكرة."([18])

و لكن استطاع "أرسطو" بوضعه للمنطق الصوري أن يقدم منهجًا جديدًا للبحث، فوضع أرسطو القياس الصوري تقديرًا منه لأهمية المنهج الصحيح في البحث العلمي([19])، لقد شكل المنطق الصوري ثورة في المناهج الفلسفية، هذا المنطق القائم على الصدق الصوري دون الواقعي، و الذي يهتم بالشروط الصحيحة للتفكير قياسا إلى مقدمات فكرية عقلية دون النظر للتحقق المادي الواقعي، فتحول إلى المنهج الأوحد للفكر والفلسفة في الفكر الغربي، يقول الدكتور حسن حنفي: " ارتبط المنهج في الغرب بمنطق اليونان، بحيث لم يعد هناك فرق بين المنهج و المنطق، المنطق هو منهج الفلسفة، لما كانت الفلسفة هي علم البرهان، و لما كان الغالب على منطق اليونان منطق القضايا الذي يقوم في معظمه على الشكل و ليس على المضمون، كان مقياس الحقيقة فيه اتساق النتائج مع المقدمات، ويكون العلم صحيحا ما دامت أشكال الفكر فيه صحيحة."([20])

ولقد ساد المنطق الأرسطي كمنهج للتفكير في فلسفة العصور الوسطى، " إن الملاحظ في تلك الفترة هو سيطرة وهيمنة الفكر الارسطي والقياس المنطقي على التفكير الفلسفي واللاهوتي، ويمكن القول أن القياس الارسطي طوال العصور الوسطى المسيحية لم يكن هو المنهج الملائم فحسب، بل أيضا المنهج الأوحد الذي ينبغي أن ينفرد بحلبة البحث."([21])

وشاع هذا المنطق في العصور الوسطى ، واعتبره المدرسيين المنهج الكفيل بتحقيق المعرفة ، ولقد احتل هذا المنهج بعد ذلك مكانة ملحوظة في المدارس الأوربية حتى مطلع العصر الحديث ، وضل أداة للبحث عند الفلاسفة المدرسيين ، وازداد تمسكهم بالقياس الأرسطي كمنهج وحيد للمعرفة في أواخر العصر الوسيط ، واعترفت الكنيسة به بعد أن تم التوفيق بينه وبين المسيحية ، وكان من بين الفلاسفة الذين قاموا بهذا العمل القديس توما الإكويني.

ومع بداية القرن السادس عشر انحسر الاتجاه الذي يتمسك بالفلسفة الأرسطية وبدء عصر العلم الطبيعي الحديث، و بدأ معه البحث عن منهج خارج المنطق الأرسطي، فقد أخذ مفكرو هذا العصر بنقد القياس الارسطي، واتجهوا إلى فكرة القانون وجعلوه هدف كل بحث علمي يستند إلى الملاحظة، "واتخذ العصر الجديد أساسا جديدا للبحث هو التجربة والملاحظة، و قد كان ديكارت و بيكون أول من صاح بالناس هذه الصيحة التي جذبت أنظارهم إلى ملاحظة الطبيعة... فلا ينبغي للإنسان أن يقبل شيئا مما يفرض عليه، دون أن يخبره بمخبار العقل و يثبته بالتجربة."([22])

لقد بدأ الوعي الأوربي يضع نفسه منهجيا على نحو ثنائي: منهج عقلي و منهج تجريبي، الأول مستنبط من الرياضيات والثاني مستقى من العلوم الطبيعية، أسس الأول ديكارت والثاني بيكون، وظهرت عدة مؤلفات عالجت مسألة المنهج أهمها" الأرجانون الجديد " لبيكون و"مقال عن المنهج "لديكارت.

قام بيكون بتصنيف العلوم ونقد منطق أرسطو وبناء منطقه الجديد بتحليل العقل ونقده من الأوهام التي يسميها أصنام العقل وهي أوهام الجنس أو القبيلة وأوهام الكهف وأوهام السوق، و وضع منهجا جديدا هو منهج الإستقراء، " ومع أن فلسفة بيكون ليست في كثير من جوانبها وافية، فإن له أهمية دائمة كمؤسس للمنهج الإستقرائي الحديث، و كرائد لمحاولة تنظيم الإجراء العلمي تنظيما منطقيا."([23])

واتجه ديكارت إلى أن يقيم الفلسفة الحديثة على نمط الرياضيات الذي يستخدم المنهج الإستنباطي ، حتى يتحقق للفلسفة ما تحقق للرياضيات من دقة ويقين، والمنهج عند ديكارت هو

"قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق ، ويبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي نستطيع إدراكها دون أن نضيع في جهود غير نافعة ، بل إنها تزيد ما للنفس من علم"([24])

ومن أجل هذا رأى ديكارت وبعد أن هاجم المنطق الأرسطي ، بوصفه منهجًا للمعرفة، أن يضع قواعد سهلة يمكن تطبيقها في البحث نظري ، ولخص هذه القواعد في أربع قواعد ، هي قاعدة البداهة وقاعدة التحليل وقاعدة التركيب ، وأخيرًا قاعدة الإحصاء.([25])

هكذا انتقل المنهج في الغرب من سيطرة المنطق الصوري كنموذج أوحد لكل معرفة فلسفية، إلى ثنائية العقل أو التجربة في العصر الحديث، ليعرف بعدها المنهج تطورا كبيرا في الفكر المعاصر، حيث كانت الميزة الأهم في الفلسفة المعاصرة ظهور مناهج عديدة، " لذلك أصبح الجديد لدى الفلاسفة المعاصرون هو طريقة معالجتهم نفس الموضوعـات القديمة لكن بأسلوب جديد و في إتجـاه فلسفي مغاير للسابقين، أي أن إمكـانية الخلق لدى هؤلاء المعاصرين خاصة تتمثل في مناهجهم الجديدة، التي استخدموها في إعادة صياغة كافة الموضوعات القديمة في صور جديدة."([26])

وقد كان كانط من الأوائل الذين دعوا إلى منطق علمي في مقابل منطق عام، وكان يقصد به البحث عن مناهج علمية تؤسس للبحث العلمي، وهنا كشف النقاب عن اتجاه جديد بدأ يظهر وينمو داخل الفلسفة ذاتها وهو علم المناهج Méthodologie ([27])

لقد عرف الفكر المعاصر ثورة في المناهج، " و تأسس المنهج الجدلي عند هيجل من أجل الكشف عن التناقضات في الفكر و الواقع، في العقل و التاريخ... ثم تحول على يد ماركس إلى جدلي مادي، كما تحول على يد انجلز إلى جدل الطبيعة، ثم حدث رد فعل عليه في المنهج التحليلي فنشأت الوضعية والوضعية المنطقية... و في المرحلة الثالثة تحول الوعي الأوربي إلى وحدة المنهج مع المنهج الظاهراتي أو المنهج الشعوري... ثم تحول في المرحلة الرابعة نحو المنهج البنيوي ثم المنهج التفكيكي."([28])

إذا فالفكر المعاصر تجاوز ثنائية العقل و التجربة نحو تحقيق طفرة في المناهج العلمية، فظهر التنوع المنهجي داخل الفكر الفلسفي.

2.4. المنهج عند المسلمين:

لقد شكل نزول الوحي لحظة فارقة في تاريخ العرب، بل وفي تاريخ الإنسانية، لقد كانت أول دعوة للإسلام هي القراءة، بما تحمله هذه الدعوة من دلالات فكرية و علمية، و إن كانت السنوات الأولى في الفكر الإسلامي لم تطرح مشكلة المنهج، إلا أن هذه المشكلة بدأت تظهر بوضوح بعد وفاة الرسول، " و قد ظهر هذا المنهج بوضوح في مشكلة العقل و النقل بين المعتزلة والأشاعرة، العقل أساس النقل عند المعتزلة لذلك وجب التـــأويل في حالة التعارض حفاظا على التنزيه، و النقل أساس العقل عند الأشاعرة و لو أدى ذلك إلى التشبيه."([29])

إذا أولى إرهاصات المنهج عند المسلمين كانت عند المتكلمين، وإن كان الفقهاء قد حاولوا استخدام مناهج مستوحاة من روح الوحي، خاصة منهج قياس الغائب على الشاهد في استنباط الأحكام الفقهية، إلا أن مشكلة المنهج ستطرح لدى المسلمين بشكل أكثر حدة عند إنتقال الفلسفة اليونانية و المنطق الأرسطي إلى الحضارة الإسلامية، حيث اعتبر الكثير من الفلاسفة المسلمين المنطق الأرسطي منهجا للمعرفة و راحوا يؤسسون من خلاله لمنهج عقلاني يقوم على البرهان، يقول حسن حنفي: " ثم حول الفلاسفة الجدل إلى برهان،... واستعملوا المنطق طريقا إلى اليقين... وقد أحكم الفلاسفة المنهج العقلي البرهاني، و عرف ابن رشد الفلسفة بأنها النظر في الموجودات بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان."([30])، لكن هل اكتفى المسلمون بالمنطق الصوري العقلي منهجا وحيدا للمعرفة؟ يجيب الدكتور علي سامي النشار: " لقد ساد المنطق الأرسطي كمنهج للتفكير في فلسفة العصور الوسطى بشقيها المسيحية والإسلامية ، فكان القياس الصوري أداة ومنهج لبلوغ المعرفة ، وإذا كان هذا القياس قد وجد صدى كبير في العصور الوسطى

في أوربا ، وكان أداة المعرفة في الحضارة الإسلامية فإن هذا لا يعني أن مفكري الإسلام إقتنعوا وقنعوا بهذا المنهج لوحده ، بل عمل مفكروها على استحداث منهج للبحث يتوافق مع الدين الإسلامي ، أو مع العقيدة، فحاول هؤلاء الإستعاضة عن هذا المنهج بمنهج يلائم عقيدتهم، و رأوا أنه لا يمكن دراسة الطبيعة بالمنهج القديم ، أي بالقياس، فأقاموا منهجًا يتناسب مع طبيعة الدراسة."([31]) و هذا المنهج هو المنهج التجريبي، الذي تجسد خاصة مع جابر بن حيان و الحسن بن الهيثم.

لقد توصل المسلمون إذا إلى المنهج العقلي القائم على البرهان المنطقي كما توصلوا إلى المنهج الإستقرائي التجريبي، حدث هذا في الوقت الذي كان الفكر الغربي يعيش تراجعا منهجيا وفكريا في العصور الوسطى مع سيطرة الفكر اللاهوتي تحت سلطة الكنيسة، و قبل ظهور المنهج العقلي القائم على الشك عند ديكارت، و المنهج الإستقرائي مع بيكون، فهل انتقل المنهج من المسلمين إلى الغرب ؟ يؤكد الكثير من المفكرين و المؤرخين التأثير الكبير للمناهج التي أبدعها المسلمون على النهضة الأوربية الحديثة، " إن المقال في المنهج الذي ألفه ديكارت ليبين للناس الطريق (المنقذ من الضلال) شبيها بما قدمه الغزالي في منقذه الذي يعد منهجا، ولنا في قول الغزالي أن الشكوك هي الموصلة لليقين أقوى مبرر لهذه التسمية، كما أن بواعث الشك لديهما واحدة."([32])

كما تأثرت النهضة الأوربية كثيرا بالمنهج التجريبي الذي أبدعه المسلمون، بل ذهب الدكتور علي سامي النشار بعيدا بالقول: " المسلمون إذن هم مصدر هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبي، و إننا لنعلم أن فرنسيس بيكون قام بعد ذلك بشرح هذا المنهج، ثم بحث فيه جون ستيوارت ميل محتذيا حذو العرب، آخذا لكل ما توصلوا إليه، مرددا عباراتهم وأمثلتهم."([33])

لقد كان للمسلمين دور كبير في إكتشاف و تطوير العديد من مناهج البحث الفلسفي و العلمي التي كان لها أثر كبير في تاريخ الحضارة الإنسانية، لكن هل بقي المسلمون على هذا المنوال من الإبداع ؟ لقد عاش المسلمون بعد ذلك ردة فكرية، فتحولوا من منتجين للمنهج كطريقة نحو أصالة المعرفة إلى باحثين عن منهج يخرجهم من التخلف الذي صروا يعيشونه في جميع مناحي الحياة الفكرية و السياسية و الثقافية و العلمية والإجتماعية، و لذلك اتجهوا في معظمهم نحو الماضي متجسدا بالأخص في النص الديني، أو نحو الآخر أي الغرب بحثا عن نموذج للنهضة، وقد تشكلت مشكلة المنهج خاصة في بدايات عصر النهضة، حيث حاول الرواد الأوائل من أمثال الطهطاوي و التونسي و الأفغاني ومحمد عبده... البحث عن منهج يجمع بين التراث الإسلامي و الحداثة الغربية، ثم تجلى الإتجاه نحو المناهج الغربية بصورة أكبر حيث نجد من بين هؤلاء شبلي شميل وإسماعيل مظهر وسلامة موسى ونزعتهم نحو مناهج "المادية التطورية"، و يوسف كرم ونزعته "العقلية المعتدلة"، وزكي نجيب محمود ومنهجه العلمي المتمثل في "الوضعية المنطقية"، وعبد الرحمن بدوي ونزعته "الوجودية"، وروني حبشي ومحمد عزيز لحبابي وفلسفاتهما "الشخصانية "، كما نجد في مرحلة متأخرة اتجاها نحو المناهج الإبستمولوجية خاصة عند محمد أركون، ومحمد عابد الجابري.

إذا فقد تحول المسلمون من منتجين للمناهج إلى باحثين عن نماذج منهجية في الحضارة الغربية، إن هذا النكوص يطرح مشكلتين رئيسيتين تشكلان أولى بوادر الأزمة في كل فكرنا العربي الإسلامي منذ عصر النهضة، و هاتين المشكلتين هما: لماذا توقف الإبداع المنهجي عند المسلمين رغم سبقهم التاريخي؟ و لماذا نجح الإنتقال التاريخي للمنهج من المسلمين إلى الغرب في تحقيق النهضة الأوربية، و عجز إنتقال المناهج الغربية إلى المسلمين في تحقيق النهضة المنشودة ؟ و إن كانت الإجابة عن المشكلة الأولى يمكن ردها إلى الظروف الثقافية و التاريخية للحضارة الإسلامية وما مرت به من حروب و صراعات داخلية كانت أو خارجية، إلا أن المشكلة الثانية و هي الأهم في نظرنا تظل أهم عائق أمام الفكر العربي المعاصر، إن هذه المشكلة تؤكد أن أزمة المنهج تظل أهم اوجه الأزمة التي نعاني منها في فكرنا إن لم تكن المعبر الوحيد عنها، يقول يوسف زيدان: "إن مشروع النهضة في بلادنا، ذلك المشروع الواعد بالكثير منذ

عصر الطهطاوي إلى اليوم، لم يثمر بقدر ما وعد، و لم يتحقق منه إلا القدر القليل، و ما ذلك التأخر في الإثمار، و التعثر في السعي إلا لأسباب من أهمها إفتقاد المنهج."([34])

إذا فالمشكلة الرئيسية في الفكر العربي المعاصر هو إيجاد منهج ملائم و مناسب للخروج من الأزمة، يقول حسن حنفي: " إن التحدي الآن ليس هو الأزمة بل المدخل إليها، ليس القضية بل طريقة التعامل معها ومعالجتها، فالأزمة في المنهج قبل أن تكون في الموضوع، فالموضوع واحد منذ مائتي عام: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ كما سأل شكيب أرسلان، أسباب التخلف و شروط النهضة كما عرض مالك بن نبي، و الأزمة في كيفية المقاربة، التشخيص و الحل، الوصف و المخرج، الإدراك و التغيير، لذلك كانت معظم الإكتشافات الفكرية و العلمية و نقاط التحول في تاريخ الحضارات إكتشافات المنهج و تحولات المنهج."([35])

إذا يمكننا أن نستنتج أن أزمة المنهج في مجتمعاتنا العربية هي أزمة فكر بأكمله، أزمة تقتضي الإنتقال من مجرد مقلدين لما يظهر في الغرب من مناهج وفلسفات إلى منتجين لها، بغية الإنخراط الفكري في الحضارة الإنسانية.

5. خاتمة:

ختاما يمكننا التأكيد على أهمية المنهج في الفلسفة حيث يرتبط البحث مهما كان موضوعه بمنهج يتبعه، وهذا المنهج مهما كان نوعه ضروري للوصول إلى نتائج فأهمية المنهج تكمن و تتجلى من خلال علاقته بالموضوع و بالنتائج، وهذه الأهمية جعلت من المنهج في أي فكر هو الأساس و هو المشكلة.

إن الفلسفة على عكس العلم ليست قائمة على منهج واحد، فإذا كان العالم الطبيعي ملزما في معالجته للظواهر الطبيعية باتباع المنهج التجريبي الإستقرائي القائم على الملاحظة الحسية، فإن الفيلسوف ليس ملزما بمنهج واحد، بل يحق له استخدام واختيار المنهج الي يراه مناسبا لطبيعة موضوعه، وهذا الحديث عن منهج للفلسفة أو مناهج متعددة مرتبطة بالموضوعات الفلسفية، يقودنا للحديث عن فلسفة المناهج، التي تبحث في المنهج في علاقته بالموضوع، إن المناهج في الفلسفة تنقسم إلى مناهج صريحة وأخرى ضمنية وهذا من ناحية حضور المنهج لدى الفيلسوف.

أما إذا انتقلنا للتطور التاريخي للمنهج غربا فيمكننا أن نجمل ذلك في انتقاله من سيطرة المنطق الصوري كنموذج أوحد لكل معرفة فلسفية، إلى ثنائية العقل أو التجربة في العصر الحديث، ليعرف بعدها المنهج تطورا كبيرا في الفكر المعاصر، حيث كانت الميزة الأهم في الفلسفة المعاصرة ظهور مناهج عديدة، فقد تم تجاوز ثنائية العقل و التجربة نحو تحقيق طفرة في المناهج العلمية، فظهر التنوع المنهجي داخل الفكر الفلسفي.

أما في فكرنا الإسلامي فقد كانت أولى إرهاصات المنهج عند المسلمين عند المتكلمين، وقبلهم الفقهاء الذين استخدموا مناهج مستوحاة من روح الوحي، خاصة منهج قياس الغائب على الشاهد في استنباط الأحكام الفقهية، ليزدهر المنهج الفلسفي مع الفلسفة الإسلامية والعلماء التجريبيين فتوصل المسلمون إلى المنهج العقلي القائم على البرهان المنطقي كما توصلوا إلى المنهج الإستقرائي التجريبي.

شهد المسلمون بعد تلك المرحلة تراجعا كبيرا، تحولوا معه من منتجين للمنهج كطريقة نحو أصالة المعرفة إلى باحثين عن منهج يخرجهم من التخلف الذي صاروا يعيشونه في جميع مناحي الحياة الفكرية و السياسية و الثقافية و العلمية و الإجتماعية، ولذلك اتجهوا في معظمهم نحو الماضي متجسدا بالأخص في النص الديني، أو نحو الآخر أي الغرب بحثا عن نموذج للنهضة، فظهر فكرنا العربي المعاصر في معظمه كصورة ارتدادية لما يظهر في الغرب من مناهج وأفكار، ولهذا فلا مخرج من الأزمة الفكرية والمنهجية في اعتقادنا إلا في العودة إلى الإبداع.

الهوامش:

([1])- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربيّة، 1989، ص 636 .

([2]) - إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، مصر، 1983، ص 195.

[3]-Madeline Grawitz, Méthode des sciences sociales, Paris: Dalloz, 1981, p 348.

(4) - رونيه ديكارت، مقال عن المنهج ، تر: محمود الخضيري، طبعة القاهرة ، 1968 ، ص25.

(5)- الزواوي بغورة: إشكالية المنهج في العلوم الإنسانية، المنهج البنيوي مثالا، البصائر - مجلة علمية محكمة - المجلد - 12 العدد 2 رمضان 1429 هـ / أيلول 2008 م، ص15.

(6)- أحمد أنو أبو النور و آخرون، قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، إشراف يوسف زيدان، الأمل للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ص 5.

(7)-Edouard Leroy: science et philosophie, in revue de métaphysique et de morale, université de Laval, p7.

(8)- الطاهر وعزيز: المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص 31.

(9)- عقيل حسين عقيل: فلسفة مناهج البحث العلمي، مكتبة مدبولي، 1999، ص47.

(10)- الطاهر وعزيز: المناهج الفلسفية، مرجع سبق ذكره، ص33.

(11)- المرجع نفسه، ص34.

(12)- محمود زيدان: مناهج البحث الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، مصر، 1977، ص122.

(13)-أحمد أنو أبو النور و آخرون، قضايا العلوم الإنسانية، مرجع سبق ذكره، ص43.

(14)- الزواوي بغورة: إشكالية المنهج في العلوم الإنسانية، المنهج البنيوي مثالا، مرجع سبق ذكره، ص18.

(15)-Gaston Bachelard, Le Nouvel esprit scientifique, Paris : Ed, P.U.F,1970, p188.

(16)_ يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ، مصر، 1993، ص11.

(17)- أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية، تاريخها و مشكلاتها، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1998، ص141.

(18)- المرجع نفسه، ص178.

(19)- توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ،دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، ص185.

(20)- أحمد أنو أبو النور و آخرون، قضايا العلوم الإنسانية، مرجع سبق ذكره، ص48.

(21)- سلام جبار شهاب، فلسفة العلم ومنهاج البحث العلمي، الجامعة التكنولوجية، 2009، ص13.

(22)- زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، مصر، 1936، ص39.

(23)- برتراند راسل: قصة الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص79.

(24)- رونيه ديكارت، مقالة الطريقة ، ترجمة: جميل صليبا، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1985 ، ص 19

(25)- المرجع نفسه، ص35.

(26)- سماح رافع محمد: المذاهب الفلسفية المعاصرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1973، ص14-15.

(27)- عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1985، ص 25.

(28)- أحمد أنو أبو النور و آخرون، قضايا العلوم الإنسانية، مرجع سبق ذكره، ص(50-52).

(29)-المرجع نفسه، ص53.

(30)- المرجع نفسه، ص54.

(31)- علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1984، ص 123.

(32)- أحمد عبد الحليم عطية: الديكارتية في الفكر العربي المعاصر، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1990، ص266.

(33)- علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي، مرجع سبق ذكره، ص357.

(34)- يوسف زيدان: قضايا العلوم الإنسانية، الأمل للطباعة والنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ص5.

(35)-أحمد أنو أبو النور و آخرون، قضايا العلوم الإنسانية، مرجع سبق ذكره، ص60.